المبحث الثالث

رحمته ﷺ بالخلق أجمعين

أولاً: رحمته ﷺ بأمته المَرحومة:

قال القاضي عِياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَّا إحسانه وإنعامه علىٰ أُمَّته، فكذلك قد مرَّ منه في أوصاف الله تعالىٰ له: من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومُبشِّرًا ونذيرًا، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ويتلو عليهم آياتِه، ويزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم. فأيُّ إحسان أجَلُّ قَدرًا وأعظمُ خَطَرًا من إحسانه إلىٰ جميع المؤمنين؟!»[1].

أ- رحمته ﷺ في دعوته أمته:

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ»، بحاشية الشمني (٢/ ٣٠).

كانت دعوته ﷺ كلها رحمة وشفقة وإحسانًا وحرصًا علىٰ جمع القلوب، وهداية الناس جميعًا، لا يَكل ولا يَمل، ولا يدَّخر في ذلك أقلَّ وُسع؛ حتىٰ كاد يهلك نفسه الشريفة ﷺ حزنًا وكمدًا علىٰ تكذيبهم له.

ولما نزل عليه الأمر بالإنذار والبلاغ - قام بتبليغ دين الله خير قيام، وترك النَّوم والرَّاحة والدَّعة.

هذا كله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما علَّمه ربه سبحانه.

وكان مع هذا كأحدهم يدخل الداخل عليهم فيقول: «أيكم محمد؟!»(١)، ويبتسم في وجوههم ويدعوهم إلىٰ ذلك، ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم.

وكان يتعاهدهم بالموعظة، ولا يملهم بها؛ كما قال ابن مسعود: «**كَانَ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا الله عنه**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: البخاري (٦٤١١)، ومسلم (٢٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهاكَ أمثلة من دعوته أصحابه بالرحمة والرفق واللين مما لا مثيل لها، ولا مَزيد عليها:

ففي الحديث أنَّ فتًى شَابًّا أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا! فَأَقْبَلَ القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ**». فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ. قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟!**» قَالَ: لاَ وَالله، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ! قَالَ: «**وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**»... الحديث، إلىٰ أن وَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**». فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الفَتَىٰ يَلْتَفِتُ إِلَىٰ شَيْءٍ»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ فِي المَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَامَ يَبُولُ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ: مَهْ مَهْ! فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تُزْرِمُوهُ(٢)، دَعُوهُ!**» فَتَرَكُوهُ حَتَّىٰ بَالَ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٥٦) حديث (٢٢٢٦٥)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) أي: لا تَقْطعوا عليه بَولَه.

ﷺ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ وَلَا القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ»(١).

ب- رحمته ﷺ بأمته في التشريع:

جاء ﷺ بالتيسير ورفع الحَرَج والتخفيف علىٰ أُمَّته؛ فقال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِن الدُّلْجَةِ»(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِن الآخَرِ، إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا؛ فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(٣).

وكان ﷺ يشتدُّ علىٰ من يخالف هذا الهدي؛ فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَىٰ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٧٨٦) ومسلم (٢٣٢٧) واللفظ له، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

الغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا! فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشَدَّ غَضَبًا فِي مَوْعِظَةٍ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ؛ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ؛ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّىٰ بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِم الضَّعِيفَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ**»(١).

وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهَىٰ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ الوِصَالِ(٢)، فَقَالَ رَجُلٌ مِن المُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ الله تُوَاصِلُ! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَأَيُّكُمْ مِثْلِي! إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**». فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا عَن الوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوْا الهِلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ الهِلَالُ لَزِدْتُكُمْ»؛ كَالمُنَكِّلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَنْتَهُوا»(٣).

وكان ينهاهم عن التكلُّف؛ فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنهما قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «**مَنْ هَذِهِ؟**». فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي! قَالَ: «**عَلَيْكُمْ مِن العَمَلِ**

(١) أخرجه البخاري (٦١١٠).

(٢) وهو أن يَصِل الصائم الليل بالنهار؛ فيصوم اليومين لا يأكل بينهما شيئًا.

(٣) متفق عليه: البخاري (٧٢٤٢)، ومسلم (١١٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَا تُطِيقُونَ؛ فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»(١).

بل كان يترك العمل وهو يحبه رحمة بأمته؛ وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»(٢)؛ وذلك كما حَدَث في قيام رمضان.

أو يخفِّفه خوفَ المشقة عليهم؛ كقوله: «**إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ؛ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمِّهِ**»(٣).

وكان ينهاهم عن كثرة السؤال وتتبع المسكوت عنه؛ فقَالَ ﷺ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ؛ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»(٤).

بل كان ﷺ يعلن دائمًا أنه لولا خشية أن يشق علىٰ أمته

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٥).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٨)، ومسلم (٧١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٧) من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٣٣٧).

لأمرها بما هو ليس بواجب عليها إرادةَ الخير بها؛ فقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي- أَوْ عَلَىٰ النَّاسِ- لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**»(١).

وقال: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخِّرُوا العِشَاءَ إِلَىٰ ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ**»(٢).

ج- رحمته ﷺ في تعامله معهم:

كان ﷺ يعامل أصحابه برحمة عظيمة حتىٰ صار أحبَّ إليهم من أولادهم وآبائهم وأموالهم، ومن الناس أجمعين، بل من أنفسهم، وليس هذا مع كبرائهم فقط، بل ومع الإماء والغلمان منهم؛ قال أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنْ كَانَتْ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ»(٣).

وكَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقَالَ: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

وَالمِسْكِينِ؛ فَيَقْضِيَ لَهُ الحَاجَةَ(١).

وكان لا يترفع عليهم في مأكل، أو مشرب، أو ملبس، أو مسكن، أو مركب، أو غير ذلك؛ فعَن أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ! فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»(٢).

فلم يكن يعاملهم كأنه مَلِك، إنما كان بينهم كأحدهم حتىٰ يدخل الداخل عليهم فيقول: «**أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟**»(٣).

ويجيب دعوتهم ويقبل هديتهم؛ قَائلًا: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَىٰ ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ(٤) لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»(٥).

---

(١) أخرجه النسائي (١٤١٤) من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١٤١٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٦١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) مستدق الساق. انظر «مختار الصحاح» للرازي (ص ٥٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخصَّ الذِّراع والكُرَاع بالذِّكر؛ ليجمع بين الحقير والخطير؛ لأن الذراع كانت أحبَّ إليه من غيرها، والكُرَاع لا قيمةَ له»(١).

فأسرهم بأخلاقه، واستمال قلوبهم بشمائله العظيمة، وخصائصه الجليلة.

د- رحمته ﷺ بهم بعد مماتهم:

لم تكن رحمته ﷺ بأصحابه حال حياتهم فقط، ليجمعهم عليه، بل شملتهم حتىٰ بعد مماتهم، حتىٰ ولو كانوا ممن لا يرفع الناس شأنهم في هذه الحياة؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَسْوَدَ- أَوْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ- كَانَ يَقُمُّ المَسْجِدَ فَمَاتَ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي بِهِ، دُلُّونِي عَلَىٰ قَبْرِهِ، أَوْ قَالَ: قَبْرِهَا**»، فَأَتَىٰ قَبْرَهَا فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا»(٢).

وكثيرًا ما كان يدفن أصحابه ويبكيهم ويدعو لهم؛ فعن

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨).

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبِّل عثمانَ بن مَظْعون وهو مَيِّتٌ، حتىٰ رأيتُ الدُّموعَ تَسيل»(١).

بل كان يُصَلِّي علىٰ مَن يظهر الإسلام ويستغفر له حتىٰ نهي عن ذلك، كما حدث عندما صلىٰ علىٰ رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول(٢).

ومن عظيم رحمته ﷺ بأمته أنه اشتاق إلىٰ رؤية من يأتي بعده منهم؛ فقال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا!** قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»(٣).

هذا؛ لأنه ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؛ قَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦]؛ **فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٦٣)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣١٦٣).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي (٣٠٩٧)، وقال: «حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي؛ فَأَنَا مَوْلَاهُ»(١).

وتتجلَّىٰ عظمةُ رحمة النبي ﷺ بأمته حينما دعا الله عز وجل ألَّا يهلكها بسَنَة عامَّة(٢).

فالأمة- بفضل الله تعالىٰ- في أمان من الهلاك بسَنَة عامة، ومحفوظة بحفظ الله من أن تُستباح بَيْضتها؛ ولم يبق إلا أن تصلح ذات بينها، حتىٰ لا يُهلِك بعضهم بعضًا.

وبلغ من رحمته عليه الصلاة والسلام بأمته أنَّه آثر أمته علىٰ نفسه بدعوته المستجابة؛ فقال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ؛ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ- إِنْ شَاءَ اللهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»(٣).

ولمَّا رَفَعَ يَدَيْهِ قائلًا: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وبكىٰ؛ أرسل الله تعالىٰ إليه جبريل، فقال: يا جبريل، اذهب إلىٰ محمد

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) عن ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقل له: «**إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا الحَدِيث مُشْتَمِل عَلَىٰ أَنْوَاع مِن الفَوَائِد مِنْهَا: بَيَان كَمَال شَفَقَة النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ أُمَّته وَاعْتِنَائِهِ بِمَصَالِحِهِمْ ، وَاهْتِمَامه بِأَمْرِهِمْ»(٢).

هذه رحمته ﷺ بأمته؛ حَرص علىٰ سعادتهم في الدارين، وأَمرَهم بما يصلحهم فيهما، وحَذَّرهم مما يضيع حظَّهم فيهما.

ثانيًا: رحمته ﷺ بالحيوان:

قبل أن تعرف الدنيا منظمات حقوق الإنسان أو حتىٰ حقوق الحيوان- عرفت سيدَ الأنام رءوفًا رحيمًا، داعيًا للرحمة بكل معانيها وبجميع الخلائق، وضرب ﷺ أروع الأمثلة في ذلك:

فجعل رحمة الله بعبده جزاء لرحمته بالحيوان؛ لما قال له رجل: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، قال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر «شرح النووي علىٰ مسلم» (٣/ ٧٨).

«**والشَّاةُ إن رحمتَها رَحِمَك اللهُ**»(١).

وأوصىٰ ﷺ بالبهائم العجماوات؛ فعَنْ سَهْل ابْنِ الحَنْظَلِيَّةِ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ؛ فَقَالَ: «**اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ البَهَائِمِ المُعْجَمَةِ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً**»(٢).

ونهىٰ عن اتِّخَاذها لغير الغرض الذي خُلِقَت من أجله؛ فقَالَ: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ، فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ**»(٣).

وبيَّن أن للعبد أجرًا في الإحسان إليها، ولو كان هذا الحيوان كلبًا، وقد يكون ذلك سببَ مغفرة ذنوبه؛ فقال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا،**

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦) حديث (١٥٦٣٠)، من حديث قرة بن إياس رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٤٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَىٰ مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي؛ فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَىٰ الكَلْبَ؛ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ أَجْرًا! قَالَ: «**فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»(١).

وأنَّه لو أحسنت بَغِيٌّ- ولو إلىٰ كلب- تابَ الله عليها وغفر لها؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ «**أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ، يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ العَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا(٢) فَغُفِرَ لَهَا**»(٣).

وأمر بإحسان ذبحها إن كانت مما يذبح، أو إحسان قتلها- إن كان لا بد من قتلها- بأن كانت مُؤذية؛ فقال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٤٤)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أي: اسْتَقَت له بخُفِّها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٥).

ذَبِيحَتَهُ»(١).

وحذَّر من قتلها إلا بحقها؛ فقال: «**مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا سَأَلَه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ**». قِيلَ: يَا رَسُولَ الله فَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «**حَقُّهَا أَنْ تَذْبَحَهَا فَتَأْكُلَهَا، وَلَا تَقْطَعْ رَأْسَهَا فَيُرْمَىٰ بِهَا**»(٢).

ولعن من اتخذ شيئًا فيه الرُّوح غرضًا(٣) للرَّمي(٤).

ونهىٰ أن تُصْبَر البهائم(٥).

ونهىٰ عن تحريقها بالنار؛ فعندما رَأَىٰ قَرْيَةَ نَمْلٍ قد

(١) أخرجه الترمذي (١٤٠٩) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، وقَالَ: «حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٢) أخرجه النسائي (٤٤٤٥)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٦١) حديث (٧٥٧٤)، وصححه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٦٦).

(٣) الْغَرَضُ: الْهَدَفُ الَّذِي يُرْمَىٰ إِلَيْهِ. انظر «مختار الصحاح» للرازي (ص ٤٨٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٩٥٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) كُلُّ ذِي رُوحٍ يُوثَقُ حَتَّىٰ يُقْتَلَ فَقَدْ قُتِلَ صَبْرًا. انظر «المصباح المنير» للفيومي (٥/ ١٥١). والحديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٥١٣)، ومسلم (١٩٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

حُرِّقَتْ، قَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ**»(١).

ولَعَنَ مَن وَسَمَها في وجهها؛ فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ**»(٢).

لأنَّ كلَّ هذا مُنَافٍ للرَّحمةِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَىٰ المؤْمنِ أَنْ يتحلَّىٰ بِها.

ورَحِم عليه الصلاة والسلام حُمَّرة(٣) قد أُخِذ ولدها وهي تُفَرِّشُ بجناحيها في الأرض وَجْدًا عليه، فقال: «**مَنْ فَجَعَ هذه بِوَلَدِها؟ رُدُّوا وَلَدَها إليها**»(٤).

وَرَفَعَ الظلم عن الحيوان؛ فأمر بإحسان صُحبته وإطعامه وألا يكلف ما لا يطيق؛ فقد دَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِن الأَنْصَارِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥)، من حديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢١١٧).

(٣) طائر صغير كالعصفور. انظر «عون المعبود».

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥)، من حديث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ(١) فَسَكَتَ، فَقَالَ: «**مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟**» فَجَاءَ فَتًىٰ مِن الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؛ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ(٢)**»(٣).

وأَخبر- بما علَّمه الله- أن امْرَأَةً عُذِّبَتِ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ(٤).

وأعظم من ذلك أنه قال: «**إِنْ قامت السَّاعةُ وبِيَدِ أحدكم فَسِيلَة(٥)، فإن استطاعَ ألَّا يقوم حتَّىٰ يَغْرسها فليفعل**»(١).

---

(١) الذِّفْرَىٰ من البَعِيرِ: مُؤَخّر رَأْسِهِ. انظر «غريب الحديث» لابن الجوزي (١/ ٣٦١).

(٢) أي: تَكُدُّه وتُتْعِبُه. انظر «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الجزري (٢/ ١٩٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٥) نخلة صغيرة. انظر «التيسير بشرح الجامع الصغير» للمناوي (١/ ٧٥٦).

وهذه دعوةٌ للتَّرَاحم وإعمار للكون، حتىٰ ولو كان في آخر لحظات الدنيا- رحمةً بالإنسان والحيوان؛ وأخذًا بأسباب ومقومات الحياة إلىٰ النهاية.

ثالثًا: رحمته ﷺ بالكافرين:

لمَّا أكرمَ اللهُ نبيَّه بالرِّسَالة واصطفاه نادىٰ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»(٢).

فقَبِل هذه الرحمة كلُّ سعيد، ورفضها كل شقي، ومع ذلك كان له من رحمة الرحمة المهداة نصيب في الدنيا، ومن ذلك:

١- مَنَعَ وجودُ النبي ﷺ دون نزول عذاب الاستئصال بالكافرين، كما حَصَلَ مع بعض الأمم السابقة لهم، مثل قوم عاد، وثمود، ولوط؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

=

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩١) حديث (١٣٠٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الأرنؤوط: «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٩١) حديث (١٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٩٠).

[الأنفال : ٣٣].

وتلك رحمةٌ نَعِم بها الكافرون جميعًا.

٢- تَرَكَ ﷺ الدُّعاءَ عليهم لما كذَّبوه وعاندوه، ولو دعا عليهم، لاستجاب الله له، كما استجاب لدعوة غيره من الأنبياء علىٰ أقوامهم، فعندما قال له أصحابه: يا رسول الله، ادعُ علىٰ المشركين، قال: «**إنِّي لم أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإنَّما بُعِثتُ رحمةً**»(١)؛ وكان هذا في معركة أُحُد، بعدما أصيب فيها ﷺ بجراحات كثيرة، وقُتِل فيها خِيرةُ أصحابه.

وحين تعرَّض المسلمون لأذىٰ ثقيف، قالوا: يا رسول الله، ادع علىٰ ثقيف، فدعا لهم قائلًا: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**»(٢).

ولما قَدِمَ الطُّفَيْلُ بن عمرو وَأَصْحَابُهُ علىٰ رسول الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ! فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٤٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال: «حسن صحيح غريب».

وَائْتِ بِهِمْ»(١).

٣- تَجَنَّبَ ﷺ الصِّدَامَ معهم بكل وسيلة مُمكنة حتىٰ يكون آخر الدواء القتال، فقد منع مقاتلتهم مدة ثلاثة عشر عامًا، وحين قَاتَلَهم، كان حريصًا علىٰ إنهاء الصراع سريعًا، ويشهد لهذه قلة عدد المعارك بينهم، وقلة عدد القتلىٰ كذلك.

وقد قال له عليٌّ: نقاتلهم حتىٰ يكونوا مثلنا؟ فقال: «**عَلَىٰ رِسْلِكَ، حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم؛ فوالله لأن يُهدَىٰ بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»(٢).

هذا هو المقصود من القتال: دفع العدوان وصد البغي، وإزالة المعوِّقات من طريق الدعوة، ولإقامة الحُجَّة.

٤- شعور عامة الكفار برحمة النبي ﷺ بهم، وشفقته عليهم، إذ رغم خذلانهم ومعاداتهم له إلا أنه دعا الله تعالىٰ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل ابن سعد رضي الله عنه.

أن يَرفع عنهم القَحْطَ والجَدْبَ، عندما أصابهم، فقد قيل له: يا رسول الله، استسق الله لمضر؛ فإنها قد هلكت، فاستسقىٰ لهم ﷺ فسُقُوا(١).

٥- صلتهم بالعطاء لتأليف قلوبهم؛ فأعطىٰ رسول الله صلىٰ الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النَّعَم ، ثم مائة ، ثم مائة. حتىٰ قال صفوان: «وَالله لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّىٰ إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»(٢).

وقال أنسٌ رضي الله عنه: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّىٰ يَكُونَ الإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»(٣).

وقال أيضًا: «مَا سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ الإِسْلَام شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا! فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

يَخْشَىٰ الفَاقَةَ»(١).

ويا لله العجب! يعطيهم الدنيا ويعيش علىٰ الكفاف؛ ليؤلف قلوبهم فيربحوا الدارين، فما أرحمه!

وكان يَعُودُ مريضَهم ﷺ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**». فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِن النَّارِ**»(٢).

٦- تفضُّله عليهم بالعفو والعتق، وترك المؤاخذة بالمثل؛ مثلما فعل بأهل مكة، وغيرهم.

٧- معاملتهم بالرفق ولو كانوا يهودًا؛ فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِن اليَهُودِ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهِمْتُهَا، فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ! قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَوَلَمْ تَسْمَعْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

مَا قَالُوا. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ!**»(١).

بل وفي حروبه التي اضطر إليها كان رحيمًا، فقابل الإساءات بالإحسان والعفو والصفح الجميل، ومع أنَّه كان يقاتل بشجاعة، إلا أنه كان صاحب شفقة عظيمة.

فكان يُوصي أُمراءه بمثل هذه الوصية؛ فعن بُريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَىٰ جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَىٰ الله، وَمَنْ مَعَهُ مِن المُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «**اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِن المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَىٰ ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ المُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَىٰ المُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ يَجْرِي**

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٤).

عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ؛ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ...» الحديث (١).

ونهىٰ عن قتل الصبيان والشيوخ والنساء في الحرب؛ فعَنْ حَنْظَلَةَ الكَاتِبِ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَرَرْنَا عَلَىٰ امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ، قَد اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ فَأَفْرَجُوا لَهُ، فَقَالَ: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ**». ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: «**انْطَلِقْ إِلَىٰ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ: لَا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلَا عَسِيفًا**»(٢).

وقال: «**أَعَفُّ النَّاسِ قِتْلَةً: أهلُ الإيمان**»(٣).

وحذَّر تحذيرًا شديدًا من قتل المُعَاهَدين؛ فقَالَ: «**مَنْ قَتَلَ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

(٢) العسيف: الأجير، وكأن المراد الأجير علىٰ حفظ الدواب لا المقاتل، والحديث أخرجه ابن ماجه (٢٨٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٣) حديث (٣٧٢٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وحسنه الأرناؤوط.

مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(١).

وحذَّر من ظُلم المعاهد بأي نوع من أنواع الظلم؛ فقال: «**أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهدًا أَو انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ- فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

وحتىٰ يوم الفتح الأكبر لما قال سَعْدُ بن عبادة : «اليومُ يومُ المَلْحَمَة، اليوم تُستحلُّ الحُرمة»، قال ﷺ: «**كَذَبَ سَعْدٌ**(٣)؛ **ولكنَّ هذا يومٌ يُعظِّم اللهُ فيه الكعبةَ، ويومٌ تُكْسَىٰ فيه الكعبةُ**»(٤)، وأخذ الراية منه.

وبينما كان المشركون جادِّين في حَمْلَتِهم لِقتله كان أكثر رحمة بهم، وكان يدعو: «**اللَّهُمَّ اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

(٣) قال ابن حجر: «فيه إطلاق الكذب علىٰ الإخبار بغير ما سيقع، ولو كان قائله بناه علىٰ غلبة ظنه وقوة القرينة». «فتح الباري» (٨/ ٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

يعلمون»(١).

رابعًا: رحمته ﷺ بالجن:

الجِنُّ: عالمٌ غَيبيٌّ، سموا بهذا الاسم؛ لاجتنانهم عن العيون، أي: استتارهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقد خلقهم الله سبحانه من النار؛ فقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر:٢٧].

وكانت الغايةُ مِن خَلقهم أيضًا عبادته سبحانه كالإنس؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن خصائصه ﷺ: أنه بُعِث إلىٰ الإنس والجن عامَّة؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**فُضِّلْتُ عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ**»؛ وذكر منها: «**وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الْخَلْقِ كَافَّةً**»(٢)؛ هذا لكون رسالته خاتمة الرسالات.

ولما كان النبيُّ ﷺ مبعوثًا رحمة للعالمين، كان الجنُّ من

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٤) حديث (٩٧٣) وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن».

(٢) أخرجه مسلم (٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ضمن العالمين الذين رحمهم الله- تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ببعثته.

قال الإمام الطَّحاويُّ: «وهو المبعوث إِلَىٰ عامَّة الجِنِّ، وكافَّةِ الوَرَىٰ، بالحقِّ والهُدَىٰ، وبالنُّورِ والضِّياءِ»(١).

وقد بلَّغ رسولُ الله ﷺ دعوته إلىٰ الجن دون شك ولا ريب، وأعلمه اللهُ أنَّ دعوته بَلَغَتْهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ [الجن:١،٢].

وصَرَف إليه نفرًا منهم يستمعون منه القرآن؛ ليكونوا دعاة لأقوامهم؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وهذا يُثبت بلوغ دعوته ﷺ إلىٰ الجِنِّ قطعًا، وكان ذلك عن طريق تَوَافدهم عليه، واستماعهم إليه ﷺ، وعن طريق ذهابه إليهم، وقراءته عليهم؛ فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ؛ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِم الْقُرْآنَ**». قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ،

(١) «شرح العقيدة الطحاوية».

وَسَأَلُوهُ الزَّادَ! فَقَالَ: «**لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا، وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا؛ فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ**»(١).

وقد ذكر الله تعالىٰ في سورة الجِنِّ أنَّ من الجِنِّ صالحين، ومنهم دون ذلك، وأن منهم مسلمين، ومنهم قاسطين، فهم أمة كسائر الأمم قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

فَمِن رحمته ﷺ العظيمة بالجِنِّ: تَحَمُّل أعباء دَعوتهم، وتعليمهم أحكام الدِّين، وتفقُّد أحوالهم، وإكرامهم بالزَّاد؛ ونهي الإنس عن إيذائهم بإفساد طعامهم، وجعل المؤمنين منهم بالله ورسوله ﷺ إخوانًا للمؤمنين من الإنس في دين الله تعالىٰ.

ونهيه ﷺ عن قَتْل حَيَّات البيوت خشيةَ أن يكون هذا المقتول جِنِيًّا قد أسلم، فقال: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ نَفَرًا مِن الْجِنِّ قَدْ**

(١) أخرجه مسلم (٦٨٢).

أَسْلَمُوا؛ فَمَنْ رَأَىٰ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعَوَامِرِ فَلْيُؤْذِنْهُ ثَلَاثًا؛ فَإِنْ بَدَا لَهُ بَعْدُ فَلْيَقْتُلْهُ؛ فَإِنَّهُ شَيْطَانٌ»(١).

وقد أثنىٰ ﷺ علىٰ مُؤمنيهم لتدبرهم القرآن؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: «خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا فَسَكَتُوا، فَقَالَ: «**لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَىٰ الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَىٰ قَوْلِهِ:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]. **قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِن نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ»**(٢).

هذا من عظيم رحمته وجميل سجاياه ﷺ حتَّىٰ مع الجِنِّ، ذلك الخَلق اللطيف الذي لا نراه بأعيننا.

وفي ذلك يقول البقاعي: «سورة الجن، وتسمىٰ ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾: مقصودها: إظهار الشرف لهذا النبي الكريم الفاتح ﷺ ... حيث ليَّن له قلوب الإنس والجن وغيرهما، فصار مالكًا لقلوب المُجانس وغيره، وذلك لعظمة هذا القرآن،

(١) أخرجه مسلم (٤١٥١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢١٣)، وقال: «حديث غرِيب»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٢٤).

ولطف ما له من غريب الشأن، هذا والزمان في آخره، وزمان لبثه في قومه دون رُبُع العُشْر من زمن نوح عليه السلام، أول نبيٍّ بعثه الله تعالىٰ إلىٰ المُخالفين، وما آمن معه من قومه إلا قليل»(١).

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٨/ ١٨٠).

obeikandl.com